

قراءة نقدية موضوعاتية لرواية التبر لإبراهيم الكوني

إعداد طالب دكتوراه: رخور أمجد

تحت إشراف: أ.د. برهمات عيسى

جامعة عمار ثلجي بالأغواط

- ملخص:

تهدف هذه القراءة النقدية لرواية "التبر" لـ "إبراهيم الكوني" إلى الكشف عن تطور الموضوعة أو التيمة المهيمنة التي ارتكزت عليها هذه الرواية. ثم الشروع في استنباط الوحدات الموضوعاتية الأساسية التي اشتملت عليها هذه الموضوعة الاستراتيجية. ثم تفكيك هذه الموضوعات الأساسية إلى وحدات موضوعاتية فرعية منبثقة عنها (الحوافز les motifs du theme)، بالاعتماد على المنهج "الموضوعاتي". وذلك بهدف الوقوف على جملة الدلالات والرموز التي ترمي إليها الرواية ككل، وإبراز مقاصد ومرامي الكاتب من كل هذه الموضوعات.

. Résumé:

Cette lecture critique du roman "AL-TIBRE" de son auteur "IBRAHIM AL-KAOUNI", vise à l'exploration des thèmes sur lesquels s'est fondé ce roman. Et puis l'exploration des unités thématiques fondamentales qui composent cette thématique stratégique.

Ainsi après la déconstruction des thèmes fondamentaux en unités thématiques secondaires (les motifs de thèmes), en se basant sur la méthode thématique, dans le but de découvrir l'ensemble des significations et symboles que vise le roman dans son ensemble, et mettre en relief les objectifs et les intentions de l'auteur à partir des thèmes et sous-thèmes dégagés et mis en fonction dans le discours des différents personnages.

1 - تمهيد:

تتميز رواية "التبر" لـ "إبراهيم الكوني" بأحداثها التي تتخذ من الصحراء فضاء لها، وبتنقلها إلى حياة مجتمع الطوارق، لتكشف جوانب محممة من عالمها الرحب. كما تتميز أيضا بنوعية الشخصية الروائية (Personnages)، حيث أنّ بطلها حيوان مهري "أبلق" نادر الصفات، بهي المنظر، الذي لم يسبق لأحد في بر الصحراء الممتد أن رأى أو يرى مثله في « رشاقته وخفته وتناسق قوامه... »⁽¹⁾.

وتتمحور الموضوعة المهيمنة في رواية "التبر" في تلك العلاقة العجيبة بين الإنسان الطارقي والجمال، التي أنجزتها وطورتها الذات الفاعلة المهيمنة فيها، وهما "أوخيد" و"الأبلق". وفي هذا السياق عمدنا إلى تتبع ما تولّد عن الموضوعة الأم، من موضوعات فرعية (sous thème)⁽²⁾. وذلك بتطبيق خطوات المنهج "الموضوعاتي" حسب تعريب "سعيد

¹ - إبراهيم الكوني، التبر، دار الريّاس، لندن، ط1/ 1990، ص 11.

² - للتوسع ينظر: تزفيتان تودوروف، مدخل إلى الأدب العجائبي، تر: الصديق بوعلام، دار الكلام، الرباط، المغرب، ط1/ 1993، ص 134.

علوش "لمصطلح (thématique)⁽¹⁾، الذي يقوم على حصر موضوعات المتن الروائي المهيمنة، ثم تفتيته إلى وحدات موضوعاتية فرعية أساسية، ثم تتبع ما ينبثق عن هذه الأخيرة من تفرعات موضوعاتية متولدة عن الموضوعة المهيمنة والموضوعات الأساسية⁽²⁾. لنخلص في الأخير إلى استنباط جملة من المحولات الدلالية والأبعاد الرمزية، التي تحيل عليها هذه الموضوعات، والتي تنم عن مقاصد ومرامي الروائي "إبراهيم الكوني".

ذلك أنّ رواية "التبر" تتميز بتميّز شخصياتها، تغدو رواية الرموز والإشارات، رواية المعاني المتداخلة والأفكار المتعلقة، رواية الإقدام والإحجام؛ تدعو تارة إلى الإقبال على متع الحياة وملذاتها، فتحضّ على التمسك بالزوجة والولد والأبلى والتبر. وتارة أخرى تلبس مسوح الناسك الواعظ، فتحدّر من الوقوع في شرك المتعة وحبال المادة وأدرانها، وتقول من عواقب ملازمة قراء السوء ذوي الطباع الفاسدة من بني البشر. وأنّ لا معنى للحياة إلا في صداقة صادقة، أو حبّ صوفي طاهر، أو عيشة حرّة كريمة، أو موت شريف مخلص. وتلك هي بعض جوانب الموضوعة المهيمنة التي اشتغلت عليها رواية "التبر"، وطورتها على نحو متصاعد عبر المنجز السردي الذي قام به بطلا الرواية "أوخيد" و"الأبلى".

2 - التيمة المهيمنة: صداقة "أوخيد" و"الأبلى" بين علاقة الاتصال وعوامل الانفصال:

تيمة الصداقة من الموضوعات التي تطرقت إليها كثير من الروايات، ولكنها تناولتها من جانبها الإنساني، حيث تحدّثت عن تلك العلاقة الإنسانية التي تربط بين شخصين أو أكثر، على أسس من الاحترام المتبادل، والمودة الصافية، والحب الصادق. ومضمون رواية "التبر" تناول موضوع الصداقة أيضا، ولكنها صداقة من نوع آخر، إنها الصداقة بين إنسان وحيوان.

ولعلّ بهذه الموضوعة المتميزة في رواية "التبر"، أهلتها لأن تكون من الروايات العربية النادرة، التي يحظى فيها حيوان أعجم، ممثلا في المهري "الأبلى" بدور البطل الرئيس، الذي لا يقل تأثيره في مسار البرنامج السردي عن شخصية بطل الرواية الإنسان، ممثلا في الفارس "أوخيد". فكلاهما بطلا الرواية، يُناط بهما تثوير التيمات وتطوير أحداثها. بل إننا نلاحظ أحيانا أن شخصية "الأبلى" تسبق شخصية "أوخيد" في صنع الأحداث والتأثير فيها. ولعلّ الحديث عن العلاقة بين الإنسان والحيوان في الإبداع الروائي، هو منحى روائي جديد في الرواية الحديثة، حاز به الروائي "إبراهيم الكوني" قصب السبق.

ذلك أنّ التيمة الرئيسة التي تناولتها هذه الرواية تنحصر أساساً في تلك العلاقة الأسطورية التي ربطت بين اثنين (أوخيد/الأبلى) لا ينتميان إلى نفس النوع، غير أنّ هذا الاختلاف النوعي، لم يكن مانعا من نشوء الألفة والمحبة بينهما، وبناء علاقة أخوة وصداقة تفوق علاقة الأخوة والصداقة بين البشر. هذه العلاقة التي نشأت بين هذين الصديقين، شُيّدت منذ البداية على قواعد قوية، وأسس متينة، والتي ازدادت قوة ومتانة وصداقة مع مرور الأيام، وتعاقب الأحداث السارة منها والمحنة. فعلى الرغم من المحن والعقبات التي اعترضت سبيل هذه الصداقة الأسطورية، وعرضتها لهزات عنيفة كادت تعصف بها، وتأتي على بنيانها من القواعد؛ إلا أنها كانت تخرج منها منتصرة، قوية، متماسكة، أكثر من ذي قبل. كذلك الاختيار المؤلم، والاختبار الصعب، الذي وقع فيه "أوخيد"!.. لأنّ آلم اختيار يقع فيه المرء أنّ يُخيّر مضطرا بين أمرين كلاهما عزيز. فقد أجبرت الظروف الصعبة "أوخيد" أن يختار، إما أن يخسر صديق عمره "الأبلى"، وإما أن

¹ . ينظر: سعيد علوش، النقد الموضوعاتي، شركة بابل للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط، د، ط، ط، ت، ص 12.

² . عبد الكريم حسن، الموضوعية البنوية، دراسة في شعر السياب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ط 1983/1، ص 33. 39.

يخسر زوجته وولده ووطنه وقييلته! رجح الاختيار كفة الصديق، واستجاب "أوخيد" لنداء الدم، ولصوت الوفاء، ليحتفظ بالأبلق، جملة الأثير! فيرهن بذلك حياته ومصيره بهذا الحيوان، ويوثق معه عرى الصداقة بوثاق أقوى من صلة الدم والنسب.

وبهذه الموضوعة الاستراتيجية التي ارتكز عليها البناء السرد في رواية "التبر"، وهي العلاقة الأسطورية بين "أوخيد" الإنسان، و"الأبلق" الحيوان، أظهر الروائي "الكوني" براعة إبداعية فائقة، عندما نجح في خلق أحداث روائية يمتزج فيها ما هو واقعي بما هو خيالي، وما هو أسطوري بما هو حقيقي، وما هو طبيعي بما هو فوق طبيعي. فقد مكنته هذه البراعة الفنية، أن يخوض في هذه الرواية، عن جوهر العلاقة التي يمكن أن تقوم بين إنسان وحيوان، وتمثل سماتها التي رفعت هاته العلاقة الأخوية إلى أعلى درجات التآلف والانسجام التي بمقدورها أن تربط بين اثنين أشد الارتباط، بل وتجاوزت بكثير مستوى الروابط الإنسانية والاجتماعية بين البشر، التي تنغصها أدواء الحسد والغيرة والأنانية. في حين كانت العلاقة بين الإنسان والحيوان، صافية لا يكتدرها طمع، ولا تصرمها أنانية، والتي يشهد عليها فضاء الصحراء الشاسع.

وإذا ما تتبعنا المنحنى السرد المبين لنمو هذه التيمة الأساسية، سنجد أن مسارها السرد يبدأ في التشكل منذ أن أخذت الذات الفاعلة "أوخيد" بالتفاخر والتباهي أمام الأقران والجلساء بمهرته "الأبلق" الجميل، الذي أهده له زعيم قبائل آهجار. ففي عجب بادٍ وزهو ظاهر، صدح "أوخيد" بصوت كالغناء «هل سبق لأحدكم أن شاهد مهرية أبلق؟.. "لا". "هل سبق لأحدكم أن رأى مهرية في رشاقته وخفته وتناسق قوامه؟". "لا..". "هل سبق لأحدكم أن رأى مهرية ينافس في الكبرياء والشجاعة والوفاء؟". "لا". هل سبق لأحدكم أن رأى غزالا في صورة مهرية؟". "لا". هل رأيتم أجمل وأنبّل؟". "لا، لا، لا. اعترفوا أنكم لم تروه ولن تروه"⁽¹⁾. هذا العجب المفرط، والتباهي المبالغ فيه، والتعالي المريب، هو الذي قلب على صداقتها ظهر الحق، فجلب ذلك غيرة وحسد وحقد من كان في المجلس، والذي كان السبب في كل المصائب الجسيمة التي وقعت للصديقين بعد ذلك.

منذ هذه المفارقة، وهذا التباهي، كانت بداية الاتصال بين "أوخيد" و"الأبلق"، فمنذ تلك اللحظة، بدأت غرى الصداقة ورابطة الأخوة تشتدّ بينهما. ومع صيرورة أحداث رواية "التبر"، تدرّجت هذه الموضوعة في النمو شيئا فشيئا، إلى أن بلغت ذروتها، يوم أن اعتزل "أوخيد" الناس، واستعاض عن معاشرة البشر، بمعاشرة الحيوان، الجمل "الأبلق"، أحب الخلق إلى قلبه. فقد نمت وتطورت هذه العلاقة بين الرفيقين إلى مرتبة خيالية فاقت العلاقة الإنسانية، على نحو لم نألفه في تراثنا السرد العربي، إلى درجة أن صار فيها «الحيوان شريكا للإنسان في بطولته وفي مصيره، وحيث تمتاز القيم الخالصة لتجد لها نماذج في ألوان من الحيوان»⁽²⁾.

وهكذا نرى حضور موضوعة الحيوان في روايات "الكوني" تكاد تكون سمة لافته، ويأتي الجمل في مقدمة حيوانات الصحراء توظيفا. فهو حيوان أليف مسالم، صبور، حكيم ووفي. يشترك مع الإنسان في صفات كثيرة، ما عدا الكلام ف «الإنسان الطبيعي والحيوان الطبيعي كلاهما من جنس واحد، لأنها ينتميان إلى الطبيعة، أما الاختلاف بينهما في الكلام فهو اختلاف في الدرجة فقط»⁽³⁾. ولكن بكم الجمل لم يمنعه من الفهم العميق، ولم يحدّ من ذكائه الحاد. وهذه المعاني

¹. إبراهيم الكوني، رواية التبر، م س، ص 11.

². فاروق خورشيد، أديب الأسطورة عند العرب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط 1/ 2004، ص 144.

³. سعيد الغانمي، ملحمة الحدود القصوى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 1/ 2000، ص. ص 114. 115.

عينها التي تبته الوالد ولده "أسوف" إليها يوماً ما، عندما قال له: «هل تظنّ أنّ الحيوان لا يفهم لمجرد أنه لا يقدر على أن يتكلّم مثلك؟ إنّه أذكى منك ومتّي!»⁽¹⁾. ثم أضاف مبيّناً لابنه علاقة الألفة والمحبة التي تربط بين الجمل والإنسان في الصحراء، ليرتّخ في ذهنه أن الجمل أحسن وأنفع وأخلص من الإنسان ذاته، قائلاً: «يجدر بك أن تهتمّ بمهرتك دائماً. إذا لم تحبّه لن يُحبّك. إذا لم تفهمه لن يفهمك ولن يُنقذك في اللحظة الحرجة. الحيوان أكثر وفاءً من الإنسان»⁽²⁾. وبالفعل، صحيح أنّ الجمل لا يمتلك القدرة على الكلام، إلّا أنّه يمتلك القدرة على التعبير بالإشارات والإيماءات، التي تنطوي على دلالات كبيرة، ومعاني عميقة، وهي من نوع «الكلام الرمزي، بحيث يُعوّض حضور الكلام الرمزي عن غياب الكلام الفعلي»⁽³⁾. فاستحوذ الجمل على جلّ أحداث الرواية بهذا الشكل الطاعني، أمر منطقي مع "الكوني"، أديب أسطورة الصحراء، الذي جعل عالم الصحراء فضاءً لرواياته، الأمر الذي ساعده على توظيف تيمة الصداقة مع الحيوان توظيفاً رمزياً، إذ «استطاع استغلال أسطورة الحيوان استغلالاً جيّداً وثرثراً»⁽⁴⁾.

وجدير بهذه الرواية أن تحتفي بموضوعة العلاقة بين الصحراوي وجمله. لأنّ هذا الحيوان يرافق الصحراوي من لحظة الميلاد إلى لحظة الوفاة، ومصيره مرتبط بمصيره، إلى درجة أن صار هو والأقارب سواء، فقد أصبح له «أماً وأباً وأخاً ومعشوقاً منذ أن نخرج إلى المرعى أول مرّة»⁽⁵⁾. ومن ناحيته بادل هذا الحيوان النبيل الإنسان مشاعر الصداقة، وعواطف الأخوة! فحينما يحاور الصحراوي، بلغة الإيماء والإشارة، التي لا تحتاج إلى لسان، يقول له: «هذا أنا الجمل، قدركم وقدر الصحراء. هذا أنا الجمل، رفيقكم في لعنة الغزلة... هذا أنا الجمل الذي تستطيعون أن تبوحوا له بأسراركم، لأنّي أنا الكائن الوحيد الذي لا يُقشي لصاحبه سرّاً. لأنّي امتلكتُ لغةً، ولكنتي افنتقدتُ اللسان. هذا أنا الجمل، أحملكم في أسفاركم، لأنكم خلقتكم للسفر، وأعبر بكم الأرض، لأنكم خلقتكم ملّةً عابرة.. وأسليكم في وحشتكم، لأنّ الصحراء ليست إلّا فردوساً من الوحشة»⁽⁶⁾.

ولهذا كان تركيز الروائي "الكوني" على تيمة الصداقة بين "أوخيد" و"الأبلق" كبيراً، وذلك لما حرص على رعاية هذه التيمة والتدرّج بها نحو التطوّر، والوصول بها إلى الذروة والتأزم، حينما عرض المنجزات السردية المناوئة والمعاكسة لاستمرار الصداقة بين هذين الصديقين. ومن خلال الاستناد إلى إبراز قناعة أهل الصحراء، في أنّ لا صداقة تعلو فوق صداقة الجمل! وأنّ هذا الحيوان يُفضّل كثيراً من البشر، كما فضّل "أوخيد" المهري "الأبلق" على والده وزوجته وولده وقبيلته! وإيرادها كدليل قوي لإقناع القارئ بجذوى جعل رابطة الصداقة بين الإنسان والحيوان تيمة مهيمنة في رواية "التبر". هذه الصلة التي جعلها الروائي تسمو عن كل الصلات البشرية؛ حتى عن صلة الدم، والمصاهرة، والقربة. ولهذا طالما كان "أوخيد" يردّد مقولته المفضّلة لأقرانه دون فتور «الحيوان خير صديق. الحيوان أفضل من الإنسان»⁽⁷⁾. وبميثاق هذه الصداقة، لم يعد بمقدور الصديقين، أو الأخوين أن ينفصل أحدهما عن الآخر. فقد صار هذا المهري لأوخيد أخواً مقرباً، وصديقاً حميماً، لا يكاد يفارقه، فهو «يتجول معه بين المضارب ويقتني أثره كالكلب. يُهرول وراءه حتى عندما

¹. إبراهيم الكوني، نزيف الحجر، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط 3/ 1992، ص 55.

². م. ن، ص ن.

³. سعيد الغانمي، ملحمة الحدود القصوى، م س، ص 115.

⁴. م. ن، ص 143.

⁵. إبراهيم الكوني، بر الخينعور، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط 2/ 1999، ص 76.

⁶. م. ن، ص. ص 76. 77.

⁷. إبراهيم الكوني، التبر، م س، ص 22.

يذهب للسهر في ليالي السمر في العراء. ولا ينام إلا عندما يهجع للنوم. يرافقه حتى عندما يسرح في الخلاء كي يقضي حاجته... يستسلم لتمسحات الجمل ومداعباته»⁽¹⁾.

وبمقارنة خصال الجمل الرفيعة، ومنافعه الجمّة في الصحراء، بخصال ومنافع الإنسان، فإن الجمل يتفوق بامتياز، ولذلك ترسّخت قناعتٌ لدى الصحراويين، من خلال تجاربهم في الحياة التي قضاها في الصحراء منذ عشرات السنين مفادها «أنّ الصداقة في الصحراء أكلوبة، والخلاّن وهمّ من أكبر الأوهام، ولا يوجد صديق للإنسان التبيل غير جمّله»⁽²⁾.

ولهذا فإنّ كل الموضوعات الفرعية التي تطرّق إليها "الكوفي" في رواية "التبر"، كان قطب رحاها هذه التيمة الأساسية، علاقة الصداقة الأسطورية والمحبة العجائبية التي ربطت بين الصحراوي والجمل، التي كان بطلها الحيوان الأعجم الجمل "الأبلق"، إذ لم يكن "أوخيد" الإنسان في هذه الرواية «الشخصية الرئيسية الوحيدة، بل هناك الأبلق. وهو حيوان أعجم لا يتكلم.. الكلمة الوحيدة التي يُتقنها الحيوان هي "أو - ع - ع - ع...". وهي كلمة بلا لغة، وصوت لا معنى له، لكنها قادرة على إيصال معاني اللغة كلّها»⁽³⁾.

لقد وحدت رابطة الصُحبة والألفة بين روحي الرفيقتين؛ فتعلّق "أوخيد" بأبلقه إلى درجة أن أصبح أقرب كائن إليه، فقد صار هذا المهريّ «الأبلق، الحيوان الأعجم، أقرب إلى الرجل من أهله وامراته»⁽⁴⁾، إلى درجة أن تولّد شعور في خلد "أوخيد" يرقى إلى درجة اليقين، أن بمقدوره أن يتحمّل فقد أي شيء؛ المرأة والخلاّن والسلطة والمال.. كل ذلك أهون عنده من فقد مهريّه الجميل التادر!. لا يستطيع أن يتخيّل الحياة بدون رفقة صديقه "الأبلق"! لقد رعاه صغيراً، وتعهّده شاباً، وتعوّد على رؤيته في كل حين، يتنقل معه بين المراعي، يعدوان في الخلاء الشاسع، ينام بجانبه، وعندما يستيقظ يكون "الأبلق" أول حيّ يراه. لقد «ربّاه بيديه، وعاشره كما لم يُعاشر امرأته.. وتبادلا وفاءً لم يعرفه من المخلوقات المزيّقة التي تُسمّى نفسها أصدقاء»⁽⁵⁾.

ولكن علاقة الصداقة العجيبة هذه بين "أوخيد" و"الأبلق"، تتعرّض إلى سلسلة من الأحداث المضادة، كادت تؤدي إلى فراق مبكّر بين الرفيقتين. وكانت بداية هذه المحن المتلاحقة، عندما أصيب "الأبلق" بداء الجرب، الذي أوشك أن يهلكه. حزن "أوخيد" حزناً شديداً لمصاب صديقه، وأشفق على حياة رفيق عمره، فانبرى يدعو الله بإلحاح شديد مستعطفاً، منكسراً، طالبا منه أن يقسم المرض، ويشطر الألم، بينه وبين أخيه "الأبلق" «يا ربّي أعطني قليلاً من ألمه. يا ربّ قاسمني ألمه. اجعلني أساهم في التخفيف عن الأبلق. هو تألّم كثيراً.. ليس عدلاً أن يتعب وحده طوال هذا الزمان. هو أخرس. لا يشكو. ولكنه يفهم... أزح عنه جزءاً من العبء وضعه فوق رأسي.. لماذا لا أتحمل عنه بضعة أيام؟»⁽⁶⁾.

أي علاقة خارقة هاته، التي وحدت بين جسمين في روح واحدة، فيحسّ "أوخيد" بألم "الأبلق"، وكأن المرض الذي يسري في بدن المهري، يسري في بدنه هو. وحينما تصدر عن "الأبلق" آهات الألم وأنين التوجّع، ينفطر قلب "أوخيد" من فرط الحزن. وكلما سمع عواء صديقه الذي أنهك المرض جسمه التثيق، وأتلف الجرب وبزه الحريري الناعم،

1. م ن، ص ن.

2. إبراهيم الكوني، برّ الحيتنور، م س، ص 77.

3. سعيد الغانمي، ملحمة الحدود القصوى، م س، ص 72.

4. م ن، ص 90.

5. إبراهيم الكوني، خريف الدّرويش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 2 / 1994، ص 127.

6. إبراهيم الكوني، التبر، م س، ص 40.

يستعر صدره غيظاً، وتخنق حنجرته العبرات! ويتضاعف وجع "أوخيد"، ويبلغ حزنه مداه، عندما يسترجع شريط ذكرياته السعيدة الماضية، التي عاشها مع أخيه "الأبلق". فتتراءى أمام ناظره هيئة المهري البهية؛ الوجه الجميل، والقوام الرشيق، والقدر المشوق، والوبر الحريري المذهب. كل ذلك كان بالأمس فقط! ويزداد ألمه أكثر، حينما يستحضر ذكرى لقاءهما، وبداية صداقتهما، التي تمتد إلى الزمان الأول، إلى زمن ما قبل الولادة «قبل أن يكونا نطفتين في رحم الأمهات. قبل أن يكونا خاطراً، عاطفة في قلوب الآباء. قبل أن يكونا رغبة تُسيطر على الجسد. قبل أن يكونا هباء في الفضاء الأبدي. عندما كانا صوتاً للريح. صدى لأغنية، نواح "أمزاد" بين أنامل حسناء، زغرودة حورية في الفردوس. نعم... كانا شيئاً واحداً قبل أن يكون أي شيء؟»⁽¹⁾.

ولما بلغ الحزن بأوخيد أقصى درجاته، ولم يعد قادراً على رؤية خليله "الأبلق" يذوب أمام ناظره يوماً بعد يوم، وأحس بعجزه في إنقاذ صداقتها الجليلة، توجه أيضاً إلى الله القادر، بأكيا، مثلاً، ليطلب منه هذه المرة الرحيل مع أخيه "الأبلق"، فإن كان قد قضى بالموت على رفيق روحه المخلص أن يقضي أيضاً بقبض روحه هو أيضاً. فألح في المناجاة، يخاطب الله متوسلاً متوجعاً «ماذا أفعل وحدي إذا ذهب؟ يا ربي أعطيتني صديقاً أخلص من كل الأصدقاء وتأخذني هكدا.. وتتركني وحيداً؟. ماذا سأفعل في التجمع الموحش مع هؤلاء الوحوش بدون الأبلق؟ لا تأخذني مني يا رب. أنت لست قاسياً يا رب. أنت رحيم... إذا كان ذلك ضرورياً فخذني معه. لا أريد أن أبقى. أنا يتيم. أنا وحيد.. أنت تعرف.. خذني. خذنا معاً»⁽²⁾.

ومن خلال طول العشرة بين الصديقين، وعلاقة القرب التي لازم بها كل صديق صديقه، يعرف "أوخيد" جيداً أن جملة يمتاز بشيم جليلة، تفوق شيم كثير من البشر، ومنها أنه صبور، وكتوم، ووفي، وشجاع! فإذا صدر منه صراخ أو عواء "آ-آ-آ-ع-ع-ع..."، فذاك يعني أنه يشكو من ألم فظيع لا يُطاق، فقد عهد عنه أنه «لا يشكو إلا إذا بلغ الألم مداه. إذا بلغ القلب. فليس ثمة في الدنيا مخلوق ينافس الجمال في الصبر على الألم الجسدي.. وقد عرف هذا السر بمعاشرته الطويلة للأبلق»⁽³⁾.

هذه الحروف المقطعة (آ-آ-آ-ع-ع-ع...) تحمل معاني كثيرة، لا يفهمها أحد إلا "أوخيد"، ومن بعض معانيها «شكوى وقبول واحتجاج وندم واستغاثة.. إلخ. الاتصال هنا ليس من خلال اللغة، بل من خلال استبطان "وعي" الحيوان»⁽⁴⁾. فيقبل "أوخيد" على معانقة صديقه بأكيا، ومنتجياً، يحاول التخفيف عنه حدة الوجع، فيدنو منه بهدوء وحنان، يدس رأسه تحت رقبته، ثم يخاطبه وبصوت مبجوح ضعيف مشجعاً وناصحاً والعبرات تكاد تكتم أنفاسه «اصبر. اصبر. الحياة هي الصبر. ألم تتفق؟ لو صبرت نلت الشفاء. أعرف أن الجن قوي ولكن الصبر أقوى من الجن»⁽⁵⁾. الجن»⁽⁵⁾.

كما يشهد "أوخيد" لصديقه "الأبلق"، أنه أوتي حظاً وافراً من الحكمة والفهم والصبر، فهو لا يشكو، ولا يتوجع، ولا يجزع. فكان "أوخيد" في كثير من المواقف يتكلم باسم صاحبه "الأبلق" يعبر عن أحاسيس رفيقه، وهو يستشعر آلامه، منها قوله: «هو أخرس. لا يشكو. ولكنّه يفهم. يتألم. ألمه فظيع. وإلا لما صرخ. التبليل لا يصرخ إلا إذا

¹ م ن، ص. ص 111. 112.

² م ن، ص 41.

³ إبراهيم الكوني، التبر، م س، ص 111.

⁴ سعيد الغاني، ملحمة الحدود القصوى، م س، ص 73.

⁵ إبراهيم الكوني، التبر، م س، ص 39.

تجاوز الألم حدّه»⁽¹⁾. ولهذا فإنّ لهذا المهري "الأبلق" صفات وأفعال إنسان، فهو حينما يتسلّل إلى رفيقه في الليل، يلصق جسمه بجسمه، ويأخذ طرف اللحاف فيغطي بها رأسه، يتفطّن له "أوخيد"، فيترك له مكانا من فراشه، ويرخي الغطاء ليغطي به الجمل وجهه، ثم «يُحيطه أُوخيد بذراعيه ويكيان معا، كلّ منهما يمسح دموع الآخر بلسانه، يتذوّق طعم الملح والألم»⁽²⁾.

وبالرغم من العقبات الكؤود التي اعترضت سبيل هذه الصداقة الأسطورية، والتي كادت تعصف بها، وتنهبها في مهدها إلى الأبد، إلا أنّها في كل مرة كانت هي القويّة المنتصرة. فقد تعرّض "أوخيد" لخسارات متلاحقة بسبب صحبة "الأبلق"؛ فقد خسر رضى والده، وخسر المشيخة التي كان والده يعدّه لها، وخسر قبيلته، وخسر زوجته وولده، وخسر حتى سمعته بين الناس! ولكنّه تمسك بعهد الأخوة الأبدية، وخمن أنّه لم يخسر شيئا ما دام رفيقه "الأبلق" بجانبه. حتى إذا دانت ساعة الأجل، وحل وقت الفراق، فليكن رحيلها معاً، لأنّ علاقتها امتزجت بالدم، فحُتمت بينهما بخاتم الوفاء الأبدى، والأخوة الأزلية، لأنّ رابطة الدم هي أعمق من رابطة النسب، ولهذا كان "أوخيد" يقول لصديقه "الأبلق": «لن يرضيك أن تفقد صديقك القديم. لن يرضيك أن تفقد أخاك الجديد. إذا اختلط الدم بالدم واتّحد الجسد بالجسد ختم العهد بالأخوة الأبدية. هذا ما تقوله العجائز»⁽³⁾، كان يطلب منه في كل مرة أن يواصل معه الحياة، وإلا فال موت معا أرحم وأطيب.

وحيثما أزفت ساعة الحقيقة، عندها تيقّن "أوخيد" بأنّه هو وصاحبه هالكان لا محالة، لما تناهى إلى سمعه من سفح الجبل استغاثات "الأبلق" الأليمة، أكّد بأنّ ورثة "دودو" قبضوا على أخيه، واستخدموه طعماً لإخراجه من مكانه الذي يتحصّن فيه في أعلى الجبل. عمدوا إلى حرق جلده بالنار، وكلما وصل صوت توجّع المهري إلى سمعه، يحسّ "أوخيد" بوخز ينفذ إلى قلبه ألم من النبال، فيكابد ألما حادّا لا يطاق، ويعالج حزنا فظيعا لا يحتمل عندما «يسمع صوته. استغاثته: آ- آ- آ- آ- ع- ع- ع. عادت الاستغاثة الأليمة أقوى من قبل. تردّد صداها في قمة الجبل طويلاً. ثمّ.. ثمّ غزت أنفه رائحة الشّياط»⁽⁴⁾.

لم يحتمل "أوخيد" صراخ أخيه "الأبلق"، لم يقدر على أن يتركه يتعذّب وحده، فالنار التي آلت جسم "الأبلق"، وأحرقت أعصابه، هي ذاتها التي أحرقت قلب "أوخيد" أيضاً، وضاعفت من آلامه. ولذلك لم يتردّد في النزول من قمة الجبل، مستسلماً لطالبي رأسه! ولولا صديقه "الأبلق"، لاستطاع الفرار، ولتجا بجلده، وحافظ على حياته. وبينما "الأبلق" يعيش لحظاته الأخيرة، وقد نهشت الحروق جسمه، وألهبت النار دمه، فقد «وسموا وجهه أيضاً. شقّوا فكّه الأيسر بالسكين المشتعل، فتأكّل ونزّ منه الدم»⁽⁵⁾. أسرع القوم إلى "أوخيد" فقيّدوه بالحبال «وجاوّوا بجملين. شدوا اليد اليمنى والرجل اليمنى إلى جمل، وشدّوا اليد الأخرى والرجل اليسرى إلى الجمل الآخر»⁽⁶⁾. فتمزّق جسم أُوخيد إلى نصفين، وفاضت روح الصديقين في وقت واحد، وبهذا تحقّقت أمنية "أوخيد" التي طالما كان يدعو الله أن يحقّقها. ومن هذه الموضوعات المهيمنة في رواية "التبر"، والتي هي علاقة الصداقة الأسطورية بين الإنسان والحيوان، تبدو

¹. م. ن، ص 40.

². م. ن، ص 30.

³. إبراهيم الكوني، التبر، م. س، ص 50.

⁴. م. ن، ص 156.

⁵. م. ن، ص 158.

⁶. م. ن، ص ن.

تظهرت المشاهد العجائبية التي وظّفها "الكوني"، من خلال احتواء الرواية على أحداث فانتاستيكية مخالفة لما هو معتاد. هذه الأحداث هي خليط من الواقعي واللاواقعي، مزيج من الأحداث الطبيعية وفوق الطبيعية «هذا المزيج هو الذي يخلق المفارقة والتناقض»⁽¹⁾ في هذه الرواية. ذلك أنّ طبيعة الحكّي العجائبي يُبنى على إدهاش المتلقي وتردّده، ومخالفة توقعاته، وتخيب أفق انتظاره، بواسطة توظيف الوحدات السردية القائمة على الأسطورة والتعجيب والإدهاش، وهذا - في الحقيقة - ما يميّز روايات الكوني كلّها.

3- التيمات الفرعية الأساسية: "أوخيد" و"الأبلق" استمرار رحلة الآلام والعذاب:

انبتق عن هذه الموضوعات الاستراتيجية، التي ركّزت عليها رواية "التبر" اهتمامها، والمتمثلة أساساً في رابطة الصداقة الأسطورية بين "أوخيد" و"الأبلق"، عددٌ من التيمات الفرعية الأساسية، والتي تفرّعت عنها هي أيضاً موضوعات أخرى، تُعرف في المنهج "الموضوعاتي" بفروع الموضوعات الفرعية. إذ يُبنى المنهج "الموضوعاتي" على عملية إحصائية تقوم على ثلاثة ركائز أساسية: الموضوعة المهيمنة، وتتفرّع عنها: موضوعات فرعية أساسية، والتي تتناسل منها هي بدورها فروع الموضوعات الفرعية. وسنقوم بعملية إحصاء لهذه الموضوعات الفرعية الأساسية، وهي الأحداث الكبيرة التي كان لها دور مؤثر في جريان الأحداث وتوجيهها، التي اشتملت عليها رواية "التبر".

وسنكتفي هنا بمحصر أحداث الموضوعات الفرعية الهامة التي كان لها دور بارز في رواية "التبر"، كما فعل "تودوروف" في كتابه "مدخل إلى الأدب العجائبي"، عندما قام بتحليل رواية "الميتة العاشقة" للروائي الفرنسي "تيوفيل غوتييه"، فقد بيّن طريقة دراسة هذه الرواية بقوله: «لم نحاول تأويل الموضوعات، ولكن رمنا فقط ملاحظة حضورها. لم نسع لتقديم تأويل للرغبة.. لقد اكتفينا بالإشارة إلى وجودها، والنتيجة هي معرفة أكثر حصرًا، وأقلّ قبولاً للنقاش، في آن»⁽²⁾. ولذلك سنعمد إلى ذكر بعض هذه الموضوعات، حسب أهميتها، ذلك أنه في رأي "دانييل برجيز" بإمكان أي ناقد أن يوجّه قراءته بحسب حدسه الخاص، لاختيار الموضوعات المهيمنة في الإنتاج الأدبي والموضوعة المتفرعة عنها، فيبرزها ويشرحها..⁽³⁾ والتي منها:

- ذهاب "أوخيد" إلى شاعرة عرافة من قبائل "كيل أبادا" لأجل أن «تقرض قصيدة مديح للمهري. تمجّد خصائله، وتطري مواهبه»⁽⁴⁾. لكن العرافة ترفض نظم القصيدة، لأن "الأبلق" لم يفعل شيئاً بعد يستوجب المدح والثناء. والثناء.

- "أوخيد" يُعدّ جملة لاستعراض الرقص، ولكن "الأبلق" يفشل في أداء رقصة الفارس. فيعمد "أوخيد" إلى البحث عن وسائل تعينه على بلوغ مراده، فيقصد فرسان القبيلة، الذين أُوكل إليهم مهمّة ترويض المهري، بينما يتولى هو بنفسه تدريبه على الرقص لأن «التدريب على الرقص في حضرة الحسان مهمة الفرسان في الصحراء»⁽⁵⁾.

- ولوج "الأبلق" حلقة الرقص، وعوض أن يؤدي رقصة الفرسان، راح يرفس بقوائمه كلّ شيء أمامه!. فعمت الفوضى، واختلّ النظام. و زاد السوط السحري الذي ألهب جسده من هياجه وانفعاله وجنونه. ليخرج "أوخيد" و"الأبلق" بفضيحة مدوية، تناقلتها القبائل في الصحراء!. فبدل أن يشتهر الفارس "أوخيد" بفروسيته، والمهري "الأبلق"

¹ . مُجّد تنفو، النص العجائبي مائة ليلة وليلة أمّودجا، دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2010، ص 135 .

² . تزفيتان تودوروف، مدخل إلى الأدب العجائبي، م س، ص 179.

³ . ينظر: مجموعة من المؤلفين، منهم: دانييل برجيز، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، تر: رضوان ظاظا، عالم المعرفة، عدد 221، مايو 1997، ص 113.

⁴ . إبراهيم الكوني، التبر، م س، ص 12.

⁵ . م ن، ص ن.

برشاقة، والتباهي بحسن أدائه للرقص، حتى يكون أهلاً لمديح الشعراء. اشتهر بفضيحة الهيجان، والزفس، والحمق، وانعكس ذلك على سوء أداء الفارس الذي يمتطيه، فأصبحت الاثنان عرضة لهجاء الشعراء.

ولحقت الفضيحة والاستهزاء "أوخيد"، لما لم يشأ "الأبلق" الجميل الرشيق أن يظهر مهاراته في الحلبة، وبلغت سخرية القوم ذروتها حين رأوا المهري يقوم بحركات بهلوانية، فقد شوهد «بتهادي نحو صف الفرسان.. وانحرف الأبلق يساراً، ودار حول حلقة الرقص، تضاحك الصبية فشعر بالعار. امتدت يده إلى السوط السحري كي يحث الجمل على الانطلاق.. وما إن أحس الأبلق بوقع السوط على جسده حتى ركبته الجنون.. و.. رفس حلقة الصبية وفقد وقاره تماماً.. اخترق حلقة النساء وحطم طبلًا أنيقاً مغطى بجلد غزال، فتفرقت النسوة، وتوقف الغناء. علت الهرجة..»⁽¹⁾.

ورغم محاولات "أوخيد" العديدة لإيقاف المهري الهائج، كشدّ اللجام وتطويق رأسه، وثني رقبته، إلا أن المهري استمر «يرفس بخفيته كل شيء في طريقه ويرغي ويلوك الزمام بوحشية. ثم بدأ الزبد يتطاير على النساء في كتل منفضة ناصعة. هرعت إليه كوكبة من الجبابرة الراجلين وحاصروه بالحبال. قلوبهم أيضاً فاضطروا إلى أن يصرعوه على الأرض. صرعوها معاً في ساحة الرقص»⁽²⁾. ونحن إذ نتصور هذا المشهد الدرامي، لا يغيب عن البال بأنه قائم على الأسطورة والفانتاستيك، لأن "أوخيد" عزا تصرف الأبلق الأحمق إلى مفعول عمل تائم سحرة "كانو" بإيعاز من الحساد وأقرانه الحافقين عليه.

- إصابة "الأبلق" بداء الجرب بسبب فحولته العمياء، ومغامرات العاطفية مع النوق السارحة في مراعي الصحراء، وغزواته المتكررة على الإناث، وبسبب إحداهن يتقاتل مع جمل شرس آخر، فيصاب "الأبلق" بجروح خطيرة.. وبذلك توالى فضائح "الأبلق" التي طالت "أوخيد" أيضاً. وعلى الرغم من كل هذه الأخطاء التي ارتكبها "الأبلق"، أبقى "أوخيد" على صداقته مع المهري، واستمرّ يمارسان حياة اللهو واللعب، بالرغم من إصابة "الأبلق" بداء الجرب اللعين.

- سبب آخر يُعزى إليه إصابة "الأبلق" بداء الجرب، وهو خيانة الصداقة، بإقدامه على خيانة ثقة صديقه "أوخيد"، وتعرض صداقتها لفضائح فظيعة، والحنث في العهد الذي قطعاه معاً على العيش في حرية وانعتاق. فإصابة "الأبلق" بهذا المرض هو جزاء الإخلال بعهد الصداقة! ولهذا هو الآن يتجرّع آلامه ويكابد أوجاعه وحيدا. ولكن صدق عواطف "أوخيد"، وحبته الكبير لصديقه، جعلته يكتفي باللوم والتوبيخ «هذه نتيجة طيشك. ماذا كسبت الآن من مغامراتك؟ ألم تسمع كلام الشيخ موسى؟ الأنتى أكبر مصيدة للذكر.. فماذا فعلت بك ناقتك التائعة؟ هي أفعى.. تلدغ.. فتحمّل الآن واصبر»⁽³⁾. ثم يرأف لحاله فيتناسى خطيئته صديقه، ويسعى إلى تخليصه من هذا الداء الذي يكاد يودي بحياته.

- الشيخ "موسى" يُسرّ لأوخيد بأن شفاء "الأبلق" في عشبة "آسيار"⁽⁴⁾ السحرية. حين همس في أذنه قائلاً: «الكلام بيننا ولكن شفاء جملك في آسيار.. اذهب إلى قرعات ميمون في الربيع القادم. آسيار لا ينبت إلا في تلك

¹. إبراهيم الكوني، التبر، م س، ص 15.

². م ن، ص ن.

³. م ن، ص 24.

⁴. آسيار: نبات أسطوري يعطي طاقة هائلة. انقرض من ليبيا في ق 3 ق. ل. ويجمع المؤرخون القدماء أنه كان دواء سحريا لكل الأمراض المعروفة في العالم القديم. وكان ملوك ليبيا القدماء يصدّرونه إلى مصر وما وراء البحار. ويعتقد الكثيرون أنّ فيه يكمن سرّ التحنيط إذ استخدمه الفراعنة لهذا الغرض. ينظر: التبر، هامش ص 23.

السّهول»⁽¹⁾. ولكنّ الشيخ الحكيم يحذّر "أوخيد" بأشد عبارات التحذير، بأنّ هذه العشبة ستصيب الأبلق بالجنون، وعليه أن يستعدّ لرحلة الآلام والعذاب!. وأمره بأن يوثق «المهري جيّدا حتّى لا يفرّ... لا تنس أن تعقله جيّداً..»⁽²⁾. فلِكَيْ ينال المهري الشفاء، وتعود لبدنه عافيته لا بدّ «أن يمرّ بالجنون، أي بالخفاء، بمعناه الحرفي كاتّناء للجن، أهل الخفاء، وبمعناه المجازي كاختفاء عن الحياة. يموت الجمل مجازيا وهو ينطلق في عدوه الجنون، يمارس آسيار مفعوله كسمّ، كدواء قاتل»⁽³⁾.

- أوخيد ينجي ولي الصحراء، إله الأولين، بأن يشفي أبلقه من المرض الخبيث ويحميه من جنون آسيار، وينذر له إن شفي صديقه أن يقدم له جملا سميناً، سليم الجسم والعقل. لم يضيّع "أوخيد" الوقت، فشّد الرحال في الحال صوب الحمادة الغربية، قاصداً الضريح الذي يزوره أهل الصحراء، يقدّمون له القرابين، وينحرون عنده النذور. وقف أمامه متوسلاً «يا وليّ الصحراء. إله الأولين. أنذر لك جملاً سميناً، سليم الجسم والعقل. اشف أبلقي من المرض الخبيث واحمه من جنون آسيار»⁽⁴⁾. وهذه الموضوعة الفرعية تُظهر تحوّل موقف "أوخيد" من التقيض إلى التقيض، حيث انتقل من مرحلة التباهي والافتخار والفتوة، والتحجيل والغناء، وحياة السعادة، ليدخل مرحلة أخرى مناقضة هي مرحلة الكآبة والحزن والألم والانكسار، وحياة التعاسة والشقاء.

- بداية رحلة العذاب والآلام، بعد عشور الصديقين على حقل عشبة "آسيار"، والتي يبدأ مشهدها من الحوار الحميمي الحزين بين "أوخيد" و"الأبلق". فقد ارتاع "أوخيد" لرؤية جسم "الأبلق" يتحوّل إلى «هيكل أسود مترهل مبعق .. خيال شاحب وبائس»⁽⁵⁾. نسمع في هذا المشهد صوت البكاء والنحيب والأنين، ونرى العبرات الحري تنسكب من مقلتي الصديقين، فيهرع "أوخيد" لمعانقة محرّته، يُطوّقه بذراعيه ويكيان معاً!. وفي جوّ هذا الحوار الكئيب، تندح من فم "أوخيد" كلمة "خلاص"، كما تندح الشرارة من وميض البرق، تعيدنا مرة أخرى إلى عالم الأساطير وما يعجّ به من جن وجنون «خلاص. يكفي. شبعنا من العذاب. يجب أن نفعل شيئاً حتى ولو كان جنونا. سنجرّب حيلة الشيخ الحكيم.. حتى ولو كان ثمن ذلك هو الجنون...»⁽⁶⁾.

لقد بدأ مفعول سحر العشبة الخرافية "آسيار" يظهر على "الأبلق"؛ فهذا هو أمارات معركة الجن قد بدأت للتو؛ العرق الحار، الزّيد المتفصد من الجلد، الألم المكتوم في الجوف، الزيد الناصع يمتزج بالعرق الأسود والقيح التّن، الدم ينفر من القوائم، الزيد واللعب والقيء الأسود يتدفّق من فم الأبلق، وهي علامات تؤكّد لـ "أوخيد" على إصابة صديقه بالحسد، ف «القيء الأسود، عين الحسد.. لقد حسدوه على الأبلق، كل ما حدث بسبب الحسد، الحسد أقوى من السم في تعاليم العرافين..»⁽⁷⁾. ها قد بدأ الآن صراخ "الأبلق" يُسمع بدون انقطاع «خلاص، ركه الجن، اصبر على الجن تقهرهم»⁽⁸⁾. ثم طفق ينهش الأرض بعدّوه الجنون، يقطع سهول السدر، يحتاز وديان الشوك، يرتفع فوق الروابي، ثم ينزل

1. م ن، ص ن.

2. إبراهيم الكوني، التبر، م س، ص 23.

3. سعيد الغاني، ملحمة الحدود القصوى، م س، ص 82.

4. إبراهيم الكوني، التبر، م س، ص 33.

5. م ن، ص 29.

6. م ن. ص. ص 30. 31.

7. م ن، ص 40.

8. م ن، ص 41.

إلى الوهاد!. و"أوخيد" يمسك بذيل صديقه بيد، وبالأخرى يشدّ باللجام، يُرى وكأنه طائر في الهواء من شدة العدو والجرّ!. تمرّق جسمها، وامتزج الدم النازف منها واختلط. ولكن "أوخيد" مُصرّ على أن لا يفلت الجمل. لقد صار أوخيد بطلاً أسطورياً بعدما خاض معركته مع الجن ف «لن تحتطفه منه الجن، سيقهر الشيطان نفسه..»⁽¹⁾. وبنزول ستر الظلام، وبزغرة "الجنيات في جبل الحساونة" انتهت المعركة المجنونة الخرافية!

- تحقّق شفاء "الأبلق" بتناوله عشبة آسيار، ولكن "أوخيد" ينسى الوفاء بالنذر، وبدل أن ينحر الجمل السمين لإنجاز النذر، نحره ليلة زفافه من "أيور". ولأنّ الآلهة لا تغفر لمن يخون العهد، فستنتقم من "أوخيد". الذي نسي الوفاء بالنذر المقدّس، أنسته مشاغل الحياة وملذاتها؛ المرأة والولد، والفروسية، وترويض المهري على الرقص أمام الحسان، والتباهي أمام الأقران...

- "أوخيد" يتلقّى إشارات إنذار من الولي القديم. حيث لم يمر وقت طويل على شفاء "الأبلق"، حتى سبب لـ "أوخيد" فضيحةً أخرى، حينما تمرد المهريّ في حلبة الرقص، وعرضه لسخرية الفتيات، وانتقاد القوم اللادع، وهجاء الشاعرات المؤلم. هنا يتذكّر الفتى النذر الذي وعد به وليّ الصحراء، وعرف أن عصيان "الأبلق" هو أول إشارة تحذير من الضريح المقدّس، وهي علامة على غضبه، والمطالبة بحقه في القربان.

- "أوخيد" يهجر القبيلة مع جملة "الأبلق" وزوجته. وذلك بعد وقوع سلسلة من الأحداث، ممثلةً في الإنجازات السردية التي قامت بها الشخصيات الضديّة، بمساعدة الأحداث السردية المناوئة، والتي كانت كلها تيمات معاكسة لتوقعات البطل "أوخيد"، ومضادة لاستمرار الصداقة بين هذين الصديقين. وتبدأ سلسلة الأخطاء ورحلة العذاب منذ زواج "أوخيد" بالحسناء "أيور"، الذي تمّ بدون مباركة والده، الذي فدأ عليه غاضباً «لا بارك الله لك فيها»⁽²⁾. والخطأ الثاني الذي ارتكبه "أوخيد"، هو نحر الجمل الذي وهبه للنذر ليلة زواجه، هذا الجمل الذي تركه يرمي كي يكبر ويسمن، ليكون قرباناً صالحاً، يليق بجلال الإله. وأما الضربة الأخرى القاصمة، حينما تبرأ منه والده، وحرمه من المشيخة ومن الميراث!. فلم يجد "أوخيد" بُداً من المغادرة. فقد ألمه دعاء أبيه عليه، وتبرّؤه منه، فيرفض زعامة القبيلة، ولم يكتثر للميراث، ليقرر مغادرة القبيلة إلى الأبد!

- في مكان هجرة "أوخيد" بـ "قزان" يزوره قريب زوجته "دودو" تاجر الذهب والعاج وريش النعام. وفي هذه الأثناء، يرتكب "أوخيد" خطأ آخر جسيماً، وهو إفشاء السرّ للغرباء. وإفشاء السر في قانون الصحراء يكلف الإنسان حياته، وذلك حينما تباهى أمام الغريب هذا الغريب بجمال "الأبلق" وخصاله الفريدة.

- العزافة العمياء تزور "أوخيد" في المنام، تقف عند رأسه لتذكّره بالنذر الذي قطعه للآلهة "تانيت". وبصرامة فيها تحذير وتهديد، حثته على الوفاء بوعده. وبكل جرأة طالبت به بنحر رفيقه "الأبلق" نفسه، وليس أيّ جمل آخر عوضاً عنه!. فيشتد غضب "أوخيد" ويتوعّد العرافة بالقتل، فيقتحم خبائها في الصباح. ومن حسن حظّها أنها غادرت منذ أيام، وإلا لكان أجهز عليها جزاء طلبها الشنيع.

- "أوخيد" يعجز عن الوفاء بالنذر، بسبب الجفاف الشديد الذي ضرب الصحراء. فيقوم بجملة من المحاولات، كي ينقذ عائلته الصغيرة، من غول المجاعة. تقترح عليه زوجته أن ينحر "الأبلق"! فيرفض رفضاً قاطعاً، ولم يكلمها بعد ذلك!. توجه إلى بائع الزيت، ليقترض منه ما يسدّ به رمق عائلته، ولكنه يرفض أيضاً. ثم يلتقي بفلاح، يعطيه حبات من

¹ - إبراهيم الكوني، التبر، م س، ص 44

² - م ن، ص 68.

التمر، ويقترح عليه حلاً صعباً، فيه إنقاذ لعائلته، وهو بيع الأبلق!¹

- "أوخيد" ينكفي على نفسه يلومها، ويكيل التهم إلى الأنثى، لأنّ في رأيه أن الأنثى هي التي جلبت البلاء له وللأبلق، وبسببها لم يستطع أن يفني بالنذر. لقد أصيب "أوخيد" بالإحباط، من كثرة المصائب المتلاحقة، فما إن يخرج من متاهة، حتى يدخل في التي تليها «من حرب الجرب إلى حرب الطليان. من ألم العطش إلى عذاب الجوع. ومن تقريع الوالد إلى كراهية الزوجة. من قسوة الصحراء إلى قرحة المعدة. وهكذا بالتناوب. لا تهدأ بلايا الدنيا حتى تبدأ بلايا ذوي القربى»⁽¹⁾.

- "أوخيد" يضطرّ إلى رهن صديق عمره "الأبلق" للغريب التاجر الجشع "دودو". لأنه لم يجد حلاً غيره، يكفل له توفير الغذاء لعائلته. وقد مّتى نفسه بأنه سيبيعه عنده لبعض الوقت، ريثما تتحسن أحوال الصحراء، ويذهب شبح المجاعة عن الديار، حينها يستطيع دفع ثمن الرهن، ويستردّ صديقه المحمم.

- "أوخيد" يعتريه الندم، ويلوم نفسه لإقدامه على رهن رفيقه "الأبلق"، فيعزم على استرداده بأي ثمن، وذلك من خلال الأفعال المعاكسة التي قام بها.

- راعي جمال "دودو" ينقل إلى "أوخيد" عرض سيده، القاضي بإرجاع "الأبلق" له، بشرط أن يطلق زوجته "آير" ويتنازل عن الولد أيضاً! ولكن "أوخيد" يبدي في البداية رفضاً، ومكابرة، وكاد يفرغ بعض الرصاصات في جسم صديقه "الأبلق"، ولكنه لم يستطع، ليرضخ في الأخير إلى القبول بالشرط المهين، ويسترجع صديقه "الأبلق".

- تنأى إلى سمع "أوخيد" انتشار إشاعة في البر الصحراوي الشاسع، تقول بأن "أوخيد" أقدم على بيع زوجته وولده إلى تاجر غني مقابل حفنة من التبر. فيبادر إلى محو هذه الشائعة، وغسل هذا العار، وتصحيح سلسلة الأخطاء المتتالية التي اقترفها، لإسكات ألسنة الفضوليين إلى الأبد.

- "أوخيد" يقتل سارق زوجته "دودو" ليلة زواجه منها. انتقاماً منه لرفضه استرجاع الزوجة والولد، ومحوً للعار الذي لحقه. وورثة "دودو" القتل يطاردون "أوخيد" وصديقه "الأبلق"، للثأر منها، وليثأح لهم تقسيم التركة.

4 - التيمات المتفرعة عن الموضوعات الفرعية: نهاية رحلة الآلام والعذاب بالموت المحلّص:

يمكن استخلاص جملة من الموضوعات الفرعية، التي انبثقت عن الموضوعات الثانوية في رواية "التبر"، وكان لها دور هام في سيرورة الأحداث وتطورها، وتدرّجها حتى وصولها إلى نهاية الرواية المأساوية بقتل الصديقين "أوخيد" و"الأبلق" معا في وقت واحد. ومن هذه الموضوعات المتفرعة عن الموضوعات الفرعية نذكر:

- اشتباك "الأبلق" مع جمل كربه للاستحواذ على ناقة.

- إصرار "أوخيد" على تخليص رفيقه "الأبلق" من دائه، بالقيام بسلسلة من الأحداث قبل العلاج بأسيار.

- "أوخيد" ومهره "الأبلق" يسافران إلى الحمادة الغربية ويتوجّهان إلى النصب الوثني القديم القائم بين الجبلين.

- العراف الوثني العجوز الزنحي الخيف القادم من "كانو"، يفك رموز التيفيناغ المحفورة أسفل الصنم، ثم يموت في ظروف غامضة.

- "أوخيد" مع مهرته في "قرعات ميمون"، وعثورهما على حقل عشبة الجنون أسيار.

- الضيف الذي زار "أوخيد" يخبئ له دون أن يعلمه «في مطموهه كيسا من التمر وآخر من الشعير»⁽²⁾. ولكن لصا

¹ - إبراهيم الكوني، التبر، م س، ص. ص 88. 89.

² - إبراهيم الكوني، التبر، م س، ص 77.

يسرق الكيسين من المخزن، ويترك له على الرمل شكل مثلث جسمه بجبات التمر. و"أوخيد" يحتار في شأن هذا الرمز، فيقصد عجوزا عمياء مختصة في قراءة النبوءات لتقول له: «قلت مثلث؟ هل نذرت شيئا للآلهة "ثانيت"؟»⁽¹⁾.

- عودة "الأبلق" إلى صديقه "أوخيد" دون علم التاجر "دودو" الذي صار ملكا له بعد الرهن.

- عجز "أوخيد" عن الوفاء بالنذر، بسبب الجفاف الذي عم الصحراء كلها، فاشتد الجوع، وغلت الأسعار بسبب «نشوب الحرب في السواحل، وتوقف القوافل والتجارة، (وراح الفلاحون) يرفعون أسعار الغلال والتمر، (ثم) أخفوها.. ورفضوا البيع أو المقايضة..»⁽²⁾. إنه الآن عاجز عن إنقاذ النذر، عاجز عن شراء جمل سمين، إنه فقير معدم، وامراته وطفله جائعان أيضا! فقد وصل به الأمر ذات مرة إلى أن «شوى مداسه الجلدي وأكله»⁽³⁾.

- غضب "أوخيد" من هذا الوضع البائس، جعله يحقد على نفسه وعلى الأنثى! فهي التي «جلبت البلاء للأبلق (و) هي التي دفعته لأن يعدّ ويخلف، يحلف ويحنث. لم يخلف وعدا في حياته، وها هو يسهو ويفعلها. مع من؟ مع رموز الأولين. مع الآلهة "ثانيت" نفسها»⁽⁴⁾.

- حلول لحظة فراق الصديقين، و"أوخيد" يحاور صديقه "الأبلق" ويحدثه طويلا عن الصبر وعن الفراق، وعن أخلاق الفرسان، و"الأبلق" يصغي إليه ويحييه بأصوات حزينة ممزوجة بالأنين والدموع. ولما يلاحظ "أوخيد" ذلك المنظر المؤلم، يتظاهر بالجلد، وينهره قائلا: «هذه ليست أخلاق الفرسان. الأطفال فقط يكون.. الأطفال والنساء. العقلاء يصبرون... (ثم) تعانقا طويلا في صمت الليل»⁽⁵⁾.

- "أوخيد" يهرب إلى الجبل ليعتصم به من مطاردة ورثة "دودو". وكان قد عرض على صديقه "الأبلق" أن يفترقا للمحافظة على حياتهما معا، على أن يلتقيا بعد جلاء هاته المحنة، وأوصاه بالتحلي بالصبر «الآن سنفترق. لا بد أن نفترق. سيقتلونا إذا لم نفترق... اصبر فقط. لا تنسى التعويذة. الصبر هو الحياة»⁽⁶⁾. لكن الأشرار قبضوا على "الأبلق"، وراحوا يعدّبونه على مقربة منه. يضطر "أوخيد" إلى الخروج إليهم، فينقّصون عليه هو أيضا، ويقتلونه على طريقة الأسطورة الصحراوية الشهيرة "تانس وأطلاتنس". حينما أوثقوا "أوخيد" من «يديه ورجليه بالحبال. جاؤوا بجملين. شدّوا اليد اليمنى والرجل اليمنى إلى جمل. وشدّوا اليد الأخرى والرجل اليسرى. إلى الجمل الآخر»⁽⁷⁾. ثم ألهب الخادمان جسم الجملين بالسوط، ليتفترقا في اتجاهين معاكسين، ويأخذ كل جمل أشلاء من الجسم الممزق.

من خلال هذا البرنامج السردى للأحداث العجائبية في رواية "التبر"، التي أنجزتها الذات الفاعلة "أوخيد"، يبدو أنها تدور كلها حول المهري "الأبلق". لقد كانت أفعال "أوخيد" المرتكز الذي استند عليه الروائي ليتمكّن من توصيف هذه العلاقة الأسطورية بين "أوخيد" الإنسان، و"الأبلق" الحيوان. كانت بمثابة اللوحة الخلفية التي تدور أمامها أحداث الرواية وعرض تيمات فيها. إلى درجة أننا إذا قارنا الأحداث الروائية التي قام بها "أوخيد" في هذه الرواية، إزاء

1. م. ن، ص 78.

2. م. ن، ص 79.

3. م. ن، ص 80.

4. م. ن، ص 80.

5. م. ن، ص 93.

6. م. ن، ص 145.

7. م. ن، ص 158.

عالمه الخاص، وحياته الفردية، بمنجزاته الروائية إزاء صديقه "الأبلق"، فإننا سنجد أن الأفعال الخاصة بـ "أوخيد" قليلة جداً. وهذا يدل على مدى اهتمام "أوخيد" بـ "الأبلق"، ومدى حرصه على بقاء علاقة الصداقة التي ربطته بهذا الحيوان واستمرارها.

5 - دلالات ورموز موضوعات رواية التبر:

تسعى هذه الرواية إلى إظهار قيمة الارتباط الوثيق الذي يتجلى في المنفعة التي يمكن أن يهبها الجمل، سفينة الصحراء، هذا الحيوان النبيل إلى ابن الصحراء. والتي جعلت من المستحيل أن يستغني الصحراوي عنه، وارتقاء علاقته به إلى درجة أن ينزله منزلة القريب المرغوب، والأخ العزيز، والصديق المقرب.

كما أنّ حرص أهل الصحراء على توثيق العلاقة مع الحيوان، يُظهر مدى زهد أهل الصحراء في كل ما هو مادي وكبالي. في مقابل كل ما هو رمزي، وروحي، وضروري. فسكان الصحراء منشغلون بتلبية متطلبات الحياة القصوى، ولا يتعدونها إلى اللهث وراء تلبية الحاجات الكمالية، التي لا لزوم لها. ذلك أنّ مجتمع الصحراء هو "مجتمع ضروري" كما يسميه ابن خلدون⁽¹⁾، وهو المجتمع الذي يكتفي أفرادها بما يلزم من الحاجات الضرورية.

ولذلك جاءت هذه الرواية معنونةً بلفظة "التبر"، لتكريس هذا الزهد الصحراوي، من خلال التحذير من التعامل بالذهب، معدن النحوس والدنس والهلاك. فحيثما حلّ يحلّ معه الخراب، ويحقق بمن يتعامل به خسارة كل شيء. فيكفي أنه كان السبب المباشر في هلاك هذين الصديقين، وتخطيم هذه الصداقة المثالية. وكان السبب في تجريد "أوخيد" من كلّ شيء، تنازل عما هو أعلى من الذهب، وهو العرض والشرف، وفقدان الحياة الكريمة، والعيش في الذلة والمهانة والعار. ولهذا يعتبر الصحراويون الحكماء التبر «إبليس الصحراء الذي يهتد المدن ويحوّل الأرض إلى خرائب»⁽²⁾. لذلك حرّم ناموس الصحراء المقدّس "آمني" على أهل الصحراء التعامل بالذهب، أو السعي إلى امتلاكه. ولم يكتف بالتحرّيم بل قضى بالقصاص من كل من لم يمتثل لهذا القانون. فقد جاء في وصية الأسلاف أنّ «التبر، في شرع القبيلة، قيمة لا تدخل أرضاً إلّا أفسدتها، وزرعت بين أهلها البلبال»⁽³⁾. كما حدث لـ "أوخيد" الذي خسر بسبب حفنة تبرّ لعينه، زوجته وولده، والحياة الكريمة. ولاحقته لعنة العار والذل والاحتقار في كل مكان، ثم يفقد أمام عينيه صديقه المحلص "الأبلق"، توأم روحه. ليخسر هو نفسه حياته بأشع طريقة! ولذلك كثيراً ما يردد الصحراويون الزهاد هذه المقولة «نحن لا نطلب التبر، ليس زهداً في الثراء، ولكن لأننا فتحنا عيوننا فوجدنا بين ناموسنا وبين هذا المعدن عداوة»⁽⁴⁾.

وبسبب هذه العداوة لمعدن الذهب، أطلق عليه أهل الصحراء عدة نعوت، ودعوه بعدة أسماء، تدل كلها على احتقاره والزهد فيه، فهو "الهباء السري"، و"الذرات اللعوبة"، و"المعدن الخفي"، و"الغبار السري"، و"السراب اللّماع"، و"إبليس الصحراء"، و"المعدن اللعين"، و"معدن النحوس".. هذا المعدن المغربي، الذي يجري كل الناس وراءه لاهثين للحصول عليه، ولو دفعوا حياتهم ثمناً له «فيقاتلون في سبيله، يفني بعضهم بعضاً، يضخّون بأنفس عطية.. بالحياة، كي يحصلوا عليه. يهربون من الله كي يسجدوا له. ينسون آيات الله (الماء، الهواء، الصحراء) ويقايضونها مقابل حفنة واحدة منه. يقايضون الله نفسه مقابل الغبار السري»⁽⁵⁾.

¹ ينظر: عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، طبعة مصوّرة عن طبعة BENJAMIN DUBRAT. PARIS / 1858، ص. ص 220. 221.

² إبراهيم الكوني، الرّبة الحجرية، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1992، ص 116.

³ إبراهيم الكوني، فتنة الزّؤان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1/ 1995، ص 39.

⁴ إبراهيم الكوني، فتنة الزّؤان، م س، ص 39.

⁵ إبراهيم الكوني، الرّبة الحجرية، م س، ص 116.

كما تُظهر هذه الموضوعة المهيمنة، والموضوعات المنبثقة عنها، والموضوعات المتفرعة، حضور المظهر العجائبي في كل أحداث الرواية، بداية من ذهاب "أوخيد" إلى شاعرة عزّافة من قبائل "كيل أبادا" لأجل أن «تقرض قصيدة مدح للمهري، تمجد خصائله، وتطري مواهبه أسوة بالفرسان والأبطال من المحاربين..»⁽¹⁾. وصولاً إلى النهاية المأساوية لكلا الصديقين. وخاصة نهاية "أوخيد" التي تمت على طريقة أسطورة "تانس وأطلانتس". فكما فعلت "تانس" بضرتها في الأسطورة الصحراوية الشهيرة، كذلك فعل بـ "أوخيد"، الذي مزّق جسمه جملان مجنونان بلهب السياط، فـ «وجد نفسه في البرزخ، سقط من حافة البئر، في المسافة بين الفوهة والماء رأى الفردوس، زغردت الحوريات، وناحت الجنّيات في جبل الحساونة»⁽²⁾، فالأسطورة دوماً حاضرة في كل مشهد منذ بداية هذه الرواية حتى نهايتها.

قضية أخرى حاولت الرواية التأكيد عليها، ألا وهي فكرة الخطيئة التي كانت سببها الأنثى، فهي التي كانت سبباً في إصابة "الأبلق" بالجرب، وسبباً في هجر "أوخيد" لقبيلته، وتخليه عن مشيخة القبيلة التي كان والده يُعده لها.. كما كانت هذه الأنثى من قبل سبب خروج الأب "آدم" من الفردوس. كل هذه الأحداث كان سببها «الأنثى أكبر مصيدة للرجل، سيدنا آدم أغوته امرأته...الله طرده من الجنة. لولا تلك المرأة الجهنمية لمكثنا هناك ننعم بالنعيم ونسرح في الفردوس»⁽³⁾.

ومن مرامي هذه الرواية أيضاً، عدم تخلي الإنسان الحرّ عن مبادئه التي آمن بها، وأخلاقه التي نشأ عليها، ومثله التي سعى إلى تحقيقها. فاختيار "أوخيد" - وهو أحد أبناء قبائل الصحراء - الحيوان رفيقاً له دون الناس، يتمّ عن فلسفة في الحياة، وعن الزهد والتّصوف الكامن في البحث عن القيم النبيلة، التي افتقدها الإنسان في أخيه الإنسان. والبحث عن الصفاء والنقاء والحرية والصدق. تلك القيم التي لم يجدها "أوخيد" في أبناء جلدته من البشر، ووجدها في هذا الجمل الأعجم!

وهذا، يسعى الروائي "الكوني" من خلال هذه الرواية، إلى استعادة الطبيعة البشرية المفقودة، والبحث في علاقتها بثنائية الخير والشر. ليخلص إلى نتيجة مفادها، أنّ ما الجوع والفقر والقحط والحاجة إلا ظروف وأسباب، تميّط اللثام عن الطبيعة الإنسانية، ومعدنها الحقيقي. وما إظهار متانة العلاقة بين إنسان وحيوان في هذه الرواية، إلا تعبير عن فقدان هذه القيم بين البشر. هذه الحقيقة المرة التي وقف عليها الروائي "الكوني"، جعلته يترك شخصية "أوخيد" الورقية تتمسك بجملها "الأبق"، وتفضّله حتى على عائلتها. مُعلنة بذلك عن خروجها المدوّي من عالم البشر. فحتى الموت الذي قضى علي "أوخيد"، ونهايته المأساوية، لم يكن بسبب التنكر لهذا الانتماء، أو بسبب التفريط في زوجته وولده. وإنما كان بسبب عدم وفائه بالنذر الذي قطعه على نفسه للربة المقدّسة "تانيت"، في حال شفاء أخيه "الأبلق".

- 6 - خاتمة:

وهذا تغدو العلاقة الثنائية إنسان/حيوان رمزا للتناقض بين عالم الواقع وعالم المثل. ودالاً على الطبيعة الشريرة في الانسان والطبيعة الخيرة في الكائنات الأخرى. ويلخص "إبراهيم الكوني" مغزى موضوع الرواية في هذا القول: «المكافأة الحقيقية.. في الصفاء والهناء والسكينة، في الهدوء والفضاء وامتداد الخلاء. لا يعرف معنى الطمأنينة إلا من كان مكثلاً بقيود الواحات، بالوهق والدمية والوهم، بهموم الحياة ودسائس الناس. يعاند بالنهار ويسهر بالليل مهموماً فلا تزداد القيود

¹. إبراهيم الكوني، التبر، م س، ص 12.

². م ن، ص 158.

³. م ن، ص 24.

إلا ضيقا وشراسة...»⁽¹⁾.

الصفاء والهناء، الصمت والسكينة، الهدوء والطمأنينة، راحة البال وصفاء الروح وسكون القلب، الفضاء الشاسع، والخلاء الممتد... تلك هي مكافأة الصحراء الحقيقية لأبنائها، بها تتطهر أرواحهم، وتغتسل أجسادهم. والصحراء في نظر "الكوفي" جديرة وحدها أن « تغسل الروح. تتطهر. تخلو. تتفرع. تنفضي.. تنطلق لتتحد بالخلاء الأبدى. بالأفق.. بالدنيا الأخرى. بالآخرة.. لتنسج الفلك الذي يسبح ليتصل بالأبدية، بالآخرة»⁽²⁾.

وهذا يكون الروائي "الكوفي" قد سما بعلاقة الصداقة الصافية بين إنسان وحيوان إلى درجة الأخوة الحقيقية، التي لا تكدرها منعصات الحياة، ولا تقهرها مصاعب الزمن، ولا تقدر أيّة قوة أن تُفترق بينهما، لأن كل هذه الشرور غير موجودة في وطن الرؤى السماوية، في الفردوس "واو"، في الحياة الأخرى.

- المصادر والمراجع:

- 1 - إبراهيم الكوفي، التبر، دار الريّاس، لندن، ط1 / 1990.
- 2 - _____، الرتبة الحجرية، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1992.
- 3 - _____، فتنّة الزّوّان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1 / 1995.
- 4 - _____، خريف الدّرويش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2 / 1994.
- 5 - _____، نزيف الحجر، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط3 / 1992.
- 6 - _____، بر الخيتعور، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط2 / 1999.
- 7 - تزفيتان تودوروف، مدخل إلى الأدب العجائبي، ترجمة الصديق بوعلام، دار الكلام، الرباط، المغرب، ط1 / 1993، ص 134.
- 8 - مُحمّد تنفو، النص العجائبي مائة ليلة وليلة أنموذجا، دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2010.
- 9 - فاروق خورشيد، أديب الأسطورة عند العرب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط1 / 2004.
- 10 - سعيد الغانمي، ملحمة الحدود القصوى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1 / 2000.
- 11 - سعيد علوش، النقد الموضوعاتي، شركة بابل للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط، د ط، ط ت.
- 12 - عبد الكريم حسن، الموضوعية البنيوية، دراسة في شعر السياب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ط1 / 1983.
- 13 - عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، طبعة مصوّرة عن طبعة BENJAMIN DUBRAT. PARIS / 1858.
- 14 - مجموعة من المؤلفين، منهم: دنيل برجيز، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، تر: رضوان ظاظا، عالم المعرفة، رقم 221، مايو 1997.

¹ - إبراهيم الكوفي، التبر، م س، ص 127.

² - م ن، ص ن.